المحاضرة الحادية عشر:

من أعلام الأدب الصوفي الجزائري:

رابعا/ الأمير عبد القادر:

1- سيرته ونشأته[1]:

هو الإمام عالم الأمراء، و أمير العلماء عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري. ولد في شهر رجب سنة 1222هـ1807/م في القيطنة، وهي قرية اختطها جده في أيالة وهران، من أعمال الجزائر، وتربى في حجر والده إلى أن بلغ سن التمييز، سها فحفظ الكتاب العزيز في المدرسة التي أسسها والده في القيطنة، وتلقى بعض العلوم، وكان والده كأسلافه من العلماء الأعلام الذين يرجع إليهم في مشكلات الأحكام، ولمّا بلغ الأمير أربع عشرة سنة سار إلى وهران، لاستكمال فنون العلوم وفي سنة 1826م سافر مع والده برا، إلى الحجاز، حيث أديا في هذه الرحلة فريضة الحج وزارا المدينة المنورة، و الحضرة النبوية الشريفة ، ومنها توجها إلى دمشق، فبغداد، فزارا حضرة القطب الرباني الشيخ (عبد القادر الجيلاني...) ورجعا إلى دمشق، ليعودا بعدها إلى الحجاز؛ حيث حجا مرة ثانية، وفي سنة 1827م رجعا إلى الوطن، ثم بايعه أهل الجزائر سنة 1832م أميرا عليهم، مبايعة تذكرنا طقوسها ببيعة الخلفاء الراشدين"[2].

بعد مبايعة الأمير ربما يتصور أن الإمارة تمت، وصارت الأمور منقادة له من قبل كل القبائل، كان الواقع غير ذلك، نعم لقد " نجح عبد القادر خلال هذه الجولة في فرض طاعته على أغلبية القبائل، قاوم الأمير، في مسيرة جهاده، العديد من الجنرالات الفرنسيين، ولم تكن براعته ، في الحنكة السياسية مع قادة محنكين بأقل من براعته في المقاومة الميدانية، فقد كان لديه من الذكاء والفطنة، ما أجبر العدو ، في عرض الصلح عليه في بداية مشواره بعد ما أبدى قدراته على تنظيم جيشه، وشجاعته وتصميمه على المقاومة في كل الظروف

2- الأمير شاعرا.

يقول زكر صيام: " ليس الذي بين أيدينا، كل ما نظم الأمير عبد القادر، فقد نظم شعرا في شبابه ضاع معظمه لسببين على الأقل هما: انهماك الأمير في بناء دولته الفتية وحربه ضد المستعمر الفرنسي من جهة أخرى، واستيلاء العدو على مكتبة بيته في مدينة (الزمالة)، التي أودع فيها مذّكراته الخاصة، وربما بعض أشعاره من جهة ثانية "[3]

وقد تطرق الأمير في شعره إلى أكثر الفنون الشعرية المعروفة في عصره، وقد " ارتبطت كل مرحلة تاريخية من مراحل حياة الأمير بفن معين من الفنون الشعرية، فشعر الفخر والحماسة مثلا أوثق صلة بحياة الأمير من شعر الوصف، وما ذلك إلاّ لأن شعره في الفخر والحماسة كان نتيجة معاناته الحروب وخبرته وتجربته الحربية"[4] وقد تناول الأستاذ فؤاد صالح السيد في كتابه، (الأمير عبد القادر الجزائري شاعرا ومتصوفا) مجموعة من أغراض شعره، وهي: الفخر والحماسة، والغزل، الشعر الصوفي، والمدح، و أخيرا الحجازيات[5].

3- الأمير متصوفا[6]:

البعد الصوفي في شخصية الأمير ليس بعدا عارضا أو طارئا ألجأته إليه الظروف، بل هو متجذّر في أعماق فطرته، ويمكن تقسيم مساره الصوفي إلى ثلاث مراحل[7]: التعلق ثم التخلق ثم التحقق.

- **المرحلة الأولى:** من ولادته إلى مبايعته، ثم طيلة جهاده التي انتهت عام1847(م وهو في عمر الأربعين، وهي مرحلة تعلقه بالتصوف والتعرف على رجاله، فقد ولد الأمير ونشأ في زاوية والده محيي الدين شيخ الطريقة القادرية...وامتد إشعاع زاويته إلى أصقاع المغرب الإسلامي، وبوفاة محيي الدين عام1833م، انتقلت الخلافة الروحية في الطريقة القادرية إلى الأمير عبد القادر وهو حينذاك زعيم الجهاد وعمره حوالي 27سنة، وفي أحضان أسرته منذ صباه بدأ الأمير مطالعاته في التصوف، زيادة على مطالعاته الصوفية كان للأمير علاقات يومية برجال التصوف من أسرته وفي زاوية والده ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم... ولما تزعم الجهاد وحكم البلاد توسعت دوائر علاقاته بشيوخ مختلف الطرق الصوفية داخل الوطن وخارجه، ووجد الأمير من شيوخ أغلب الطرق الصوفية تأيدا و مآزرة لجهاده.

- **المرحلة الثانية:** تتألف من فترتين؛ فترة سجنه ثم فترة السنوات الأولى من استقراره كليا في دمشق بعد إقامته في بروسة بتركيا.

الفترة الأولى: فترة الاعتقال مابين 1847و 1852، حيث جعل الأمير من سجنه مدرسة لتعليم أصحابه، فكانوا يتدارسون كتب الشريعة والتصوف والأدب والتاريخ، وجعل الأمير من سجنه أيضا خلوة للذكر والتفكر والتعبد فأشرقت عليه مطالع الفتح النوراني وحصلت له وقائع روحانية ومشاهد ومرائي لرسول االله صلى االله عليه وسلم وللخليل إبراهيم عليه السلام.

الفترة الثانية: تبدأ من خروجه من السجن عام1852م، إلى سنة حجه عام 1862م، فبعدما خرج من سجنه وقضى سنتين في بروسة بتركيا حيث ألف كتابه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، توجه

من عام 1855م لدمشق ليستقر بها... وفي هذه الفترة أتيح له دراسة كتب الشيخ التي لم يطلع عليها من قبل، وهي تعد بالمئات، وكلما ازداد عليها عكوفا ازداد بها شغفا وازدادت العلاقة الروحية بينه وبين الشيخ عمقا..

-**المرحلة الثالثة:** مرحلة التحقق والفتح الكبير:

يقول ابنه محمد " أقبل الأمير، على عبادة الله تعالى، عند بيته الحرام، في مسجده الحرام، وتفرغ لها، من كل شيء يتعلق بالدنيا وأهلها، واختار الشيخ محمد الفاسي، المجاور في مكّة المكرمة، أستاذا له فأخذ عليه الطريق، وتلقى شؤونها عنها ولازم، الرياضة والخلوة والاجتهاد، وعكف على ما في تلك الطريقة الميمونة، من الوظائف والأوراد، إلى أن رقي معارج الأسرار إلى حظائر القدس ذات الأنوار، ووقعت له كرامات وخوارق، و أحرز بقوة سعده أحوالا سنية و أنفاسا محمدية وما تم له الارتقاء إلا في غار حراء، لأنه انقطع فيه أياما عديدة، إلى أن جاءته البشرى بالرتبة الكبرى، ووقع له الفتح النوراني، وتفجرت ينابيع الحكم على لسانه وفاضت عيون الحقائق بين أدواح جنانه وانفتح له باب الواردات، واستظهر من القرآن العظيم آيات ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة.

4- نماذج من شعره الصوفي:

لقد سلك الأمير عبد القادر مسلك المتقدمين من الصوفية في تجاربهم الروحية، وذلك من خلال غوصهم في مختلف المضامين من ذلك تغنيهم بالخمر وسكرهم بها، وأثرها عليهم، فسكر هؤلاء العشاق من وقدة الحب وحرقة الجوى، ولذة الوصال والقرب من الله، يقول الامير فيها واصفا أثرها الحسي والروحي:

و يشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر
فلا غول فيها ولا عنها نزفة وليس لها برد وليس لها حر
معتقةٌ من قبل كسرى مصونةٌ وما ضمها دنّ ولا نالها عصر[8]

يصور الأمير تأثير هذه الخمر في شاربها من المتصوفة، فهي تسبب لهم الانشراح والانبساط، فتراهم سكارى وما هم بسكارة بنشوة هذه الخمر، فحلقت أرواحهم، يقول:

ترى سائقيها كيف هامت عقولهم ونازلهم بسط وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا فمن يرجي من الكون غيرنا فنحن ملكوت الأرض لا البيض ولا الحمر

تميد بهم الكأس بها قد تولهوا فليس لهم عرف وليس لهم فكر

حيارى فلا يدرون أين توجهوا فليس لهم ذكر وليس لهم فكر[9]

ويقول في الحب والغزل الألهي، حيث تجلى الحب والعشق الإلهي في شعر الأمير عبد القادر الصوفي، يقول:

أوقات وصلكم عيد وأفراح يا من هم الروح لي والروح والراح

دبت حمياهم في كل جوهرة عقل ونفس وأعضاء وأرواح

فما نظرت إلى شيئ يشبهه فما يروق للقلب بعد ملاح[10]

ويقول أيضا معبرا عن درجة إخلاصه لحبيبه، فقد أحبه حبا لا شريط له فيه:

هوى المحب لذي المحبوب حيث ثوى وكيفما راح هبت منه أرواح

أود طول الليل إن خلوت بهم وقد أديرت أباريق وأقداح

يروعني الصبح إن لاحت طلائعه يا ليته لم يكن ضوء ومصباح

ليلي بدا مشرقا من حسن طلعتهم وكل ذا الدهر أنوار وأفراح[11]

إلى أن يقول:

أسكن فؤادي وطب نفسا وقر لقد بلغت ما رمت قر الناس أو ساحوا

واطلب إلهك ما ترجو فإن له خزائنا ما لها قفل ومفتاح[12]

من خلال سيرته ونماذج شعره الصوفي نلمح بجلاء البعد الصوفي عند الأمير عبد القادر، فهو متصوف أصلا وهو في شعره يترسم خطى كبار شعراء المتصوفة كابن الفارض وابن عربي وغيرهم.

المصادر والمراجع (الاحالات):

[1] ينظر مقدمة كتاب الأمير ، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل- كتبها ابنه محمد باشا، تحقيق ممدوح حقي، دمشق، دار اليقظة العربية، (دط)، 1976م، ص: 15-23 .

[2] أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، (2007م)، ص: 28.

[3] الأمير عبد القادر، الديوان، تح وشرح وتعليق: زكريا صيام، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (دط) ، (دت)، ص: 5.

[4] فؤاد سيد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (دط)،1985 م، ص: 198

[5] ينظر المرجع نفسه، ص: 186-187.

[6] ينظر: مقدمة المحقق، عبد الباقي مفتاح، الأمير عبد القادر، المواقف، ص: 12-20.

[7] فؤاد سيد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص: 30.

[8] الأمير عبد القادر، الديوان، ص196.

[9] الأمير عبد القادر، الديوان، ص: 194.

[10] الأمير عبد القادر، الديوان، ص: 102-103.

[11] الأمير عبد القادر، الديوان، ص: 209.

[12] الأمير عبد القادر، الديوان، ص: 206.